الـــزهو ...

قصة بقلم سامي عطفه

هم م م ، انتهينا ...

وطرح قماشة التلميع جانبا ثم وضع فردة الحذاء على البـــلاط قرب الصندوق بعناية بالغة شاعرا بأنه قد أنجز عملا على جـــانب عظيم من الاهمية . وكان العرق يملأ غضون جبهته ويتسلل الى عينيه الكليلتين فيكويهما ، ومسح جبينه بكمه ثم فرك عينيه بأصابع سودها الدهان حتى زال الوخز منهما ، فزفر بقوة وهو يرمق الحذاء بنظـرة سريعة ... هذه المرة لا بد أن تعجبه « وما أحلاها اذا كانت لا تعجبه بعد كل هذا التعب » ! هكذا فكـــر محاولا تعزيـــز وثوقـــه بجـــودة شغله ... أصلا ، لو كانت كل الكنادر تأخذ هذا الوقت ما كـــانت الشغلة توفي معنا .. لكن ، نوري بك ماله مثيل بين البشر ، بلوة.. لا يعجبه شيء ، ولا يرضيه شيء ..! فلو كان كل الموظفين في الوزارة مثله ما كنت اشتغل فيها ولو ملكوني الارض .. وانتابته هبة لا مبالاة فأسند ظهره الى الجدار ومد ساقه العرجاء بينما تسللت أصابعـــه الى جيب قميصه ، فأخذ واحدة من السجائر الخمس التي اشتراها في الصباح ودس طرفها بين شفتيه ثم أشعلها وراح يمص دخانهـا بنهم وقوة . ودغدغت حرافة التبغ الرخيص حنجرته فانتابته نوبـــة سعال حادة ، فظل صدره يرتج بحركة آلية متواصلة حتى ســـالت الدموع من عينيه . وتمكن أخيرا من كبح النوبة فغمغم : تفوه ، لعنة الله على ... وبصق بقوة في الزاوية ثم أطفأ السيجارة وفكر زاجرا نفسه بحزم وهو يمسح الدموع التي سالـــت على وجنتيه : هـــذا الدخان اتركه ، ماذا يردك عن تركه ؟!.. لكنه كان يعرف مسبقـــا انه لا يفكر جديا في ترك التدخين ، فصرف اهتمامه عن الموضـــوع برمته . وتذكر نوري بك بوجهه الصارم الصلف ، فلمّ ساقه العرجاء واستوى على كرسيه ثم تناول الحذاء وراح يقلبه . وغامت عينـــاه فأغمضهما وفتحهما حتى صفت رؤيتهما فتابع عملية الفحص الدقيقة.. قد تكون نسيت شيئا هنا أو هناك وأنت لست في حاجة لسماع كلام نوري بك . يكفي ما قاله لك أول امس .. وتراءى لـــه ثانية وجـــه نوري بك بملامحه الصارمة :

ـ أنت يا أبو زكي ما عدت تهتم بشغلك . شف ، هذه تسميها مسحة ؟!.. كنا نشفق عليك ونغض النظر . لكـــن للشفقة حـــدود ، وفي المرة القادمة لن أقبل بهذا الشغل ..

واختفى الوجه الصارم ، ففكر أبو زكي : لا ، هذه المرة لا يمكنه أن يقول لك ولا كلمة ..! لكن ثقته لم تكن على هذا القدر مـــن الحسم ، فنوري بك قد يجد شيئا ما يتعلق به .. وطافت نظـــرة أبي زكي الشاردة في الدهليز الطويل المعتم ثم توقفت عند الغرفـــة الاخيرة : غرفة نوري بك : قم خذها .. ونظر أبو زكي بتقاعس الى المصباحين الباهتين المعلقين في السقف وقد بدأت مواجهة نوري بك تأخذ أبعادها الواقعية المثبطة للعزيمة . وصر باب في طرف الدهليز الثاني فالتفت أبو زكي . كان أبو صطيف يهدج بقامته القصـــيرة الحدباء في الدهليز حاملا صينية القهوة ، وتأمل أبو زكي الآذن الكهل طويلا : أبو صطيف هذا ما على قلبه هم ، في أول كل شهر يقبض راتبه وهو مرتاح ودون أن يسمع منة من أحد . وهذه القهـــوة صنعة ثانية في يده .. ايه ، هذا حال الدنيا : واحد تضيع أرضه ويطرد من بيته ويعيش كـــل عمره بين كنادر الناس اليؤمن لقمتـــه ، وواحـــد يبعث له الله رزقه وهو قاعد .. لا تقس نفسك بالناس يا أبو زكي، أنت رجل منحوس ، ولولا ذلك ما كنت وصلت الى هذه الايـــام ، خسرت بيتك وأرضك و .. حتى ابنك الذي ربيته وتعبت عليـــه ، تركك وراح وما عاد يسأل عنك . ايه ... وصعدت من صدره آهـــة عميقة متحشرجة .. ودنا منه أبو صطيف فواتته فكرة ، فتنحنـــح ليشير انتباهه ، لكن عيني الآذن الكهل كانتا مثبتتين على الفنجـــان خشية أن يهتز فتنسفح قهوته . وابتعد أبو صطيف فناداه بلهفـــة

ـ « ابو صطيف .. يا أبو صطيف .. »

ـ « ها ! » .. وتوقف أبو صطيف على كره منه والتفت الـــى أبي زكي وصاح به : « ماذا تريد ؟ » .

ـ « بالله عليك » .. قالها أبو زكي بنغمة رجاء ، وأضاف : « تعال شف لي هذه الكندرة وقل لي اذا كانت مسحتها مليحة » .

قال أبو صطيف مغتاظا : « أهـــذا وقتها ، الا ترى ؟! » وأومـــأ برأسه الى الفنجان .

قال أبو زكي متوسلا : « هذه كندرة المدير .. » وبلع ريقـــه بمسكنة وأضاف : « أنا خائف أن لا تعجبه ، أنت تعرفه ، المـــرة الماضية صاح في وجهي .. تعال بالله عليك » .

حينئذ نظر أبو صطيف اليه باشفاق وهتف بشهامة : « عـــلى عيني يا أبو زكي ، بس حتى أوصل الفنجان وارجع » .. ثم اختفى في باب غرفة قريبة ، وحينما خرج منها دنا من أبي زكي وقرفص ، ثم وضع صينيته على الارض وقال بلهجة خبير حصيف : « أيـــه ، هات لنشوف .. » . ومن دون أن ينتظر مد يده فتناول الحـــذاء وراح يقلبه متفحصا وهو يهمهم ، ثم هتف باعجاب الخبير الحصيف : « سلم الله أياديك ، في عمري ما شفت أحسن منها .. والله لـــو حطها في أحسن المحلات ما مسحوها أحسن من هذه المسحـــة » . ثم أعاد الحذاء الى مكانه وأخذ صينيته ووقف .

وركز أبو زكي نظرته الغائمة على الآذن الكهل وقال بارتيـــاح يشوبه الحذر : « قل لي الحقيقة ، لا تورطني يا رجل » .

فهتف أبو صطيف بحماسة وهو يهم بالمسير : « أنا أورطك ؟!.. لعنة الله علي اذا كانت لا تعجب الوزير نفسه !.. » ثم لـــوح بصينيته وهرج مختالا الى « البوفيه » دون أن ينتظر أي تعقيب ، بينما راح أبو زكي يتأمله بامتنان ، وخالجته الرغبة في أن يقفـــز ويأخذ هذا الاحدب بين ذراعيه ويعانقه ، ولكنها كانت رغبة عابرة فلم يحرك ساكنا ، وحينما اختفى أبـــو صطيف تناول الحـــذاء ووقف فحك رأسه لحظة وهو يفكر في المواجهة العصيبة مع المدير ، ثـــم مضى يطلع في الدهليز . وحينما وقف على عتبة الباب كانت ثقتـــه قد تبخرت بكاملها وانصاع بكليته لجو المهابة فهتف باحترام بالـــغ :

ـ « صباح الخير سيدي » .

ـ « صباح الخير » .. قال نوري بك بلا مبالاة ودون أن يرفع رأسه عن ملف راح يدرسه باهتمام .

وانتظر أبو زكي بعض الوقت ثم قال : « الكندرة ، سيدي ! » .

ـ هاتها .. قال نوري بك وهو يقلب الورقة في الملف .

وظلع أبو زكي حتى بلغ الطاولة فانحنى برشاقة ماسح أحذيـــة فتي ووضع الحذاء عند موطىء قدمي المدير وقال باحترام : « سيدي، تفضل البسها » .

ـ انتظر يا رجل !..

هكذا زجره بلهجة تنم عن ضيق صدر ثم راح يهمهم وهو يتابع القـــراءة ..

وتراجع أبو زكي خطوة الى الوراء ثم وقف بخشوع . ومـــرت دقائق كان أثناءها يسترق نظرة استطلاع الى الوجه المتجهم ثم يعـود بعدها فيتخذ المظهر الانضباطي لجندي يقف في ساحة العرض .

وغمغم المدير وهو يرفع النظارة عن عينيه ويضعها على الطاولة : « هؤلاء الملاعين ، أولاد ال ... ! » ونظر الى ابي زكي وقال بمهابة : « هات لنشوف ، ارفعها .. » .

وأجفل أبو زكي ، لكنه انحنى برشاقة فأخذ الحذاء ورفعـــه الى مستوى الطاولة وقال : « هاه سيدي ، شف » .

وزعق المدير : « ما هذا يا أبو زكي ؟! » .

وأجفل أبو زكي ثانية وشحب وجهه : « شو سيدي ما أعجبتك؟ »

فتساءل المدير بغيظ : « ما أعجبتني ؟! » وصرخ غاضبـــا : « لا ، ما اعجبتني .. كاني ما قلت لك شيئا وما نبهتك مائة مرة » !

وتعثرت الكلمات على لسان أبي زكي . « سيدي ، والله مسحتها مثلما قلت لي ! » ونظر الى المدير بعينين مبهورتين .

ـ « مثلما قلت لك ! أنا قلت لك اعمل بها هذا ؟! » وأشار بسخط الى الحذاء : « شف ! لا يمكن للانسان أن يعـــرف ما اذا كانت سوداء أو بنية أو ... تطلع ، شف كيف صارت كالعدة !.. حاطط لها دهن اللوز ؟ » .

ولاحظ أبو زكي النبرة الهازئة فقال بارتباك : « سيدي ، والله روحت عليها نصف العلبة .. » .

ـ نصف العلبة ، أنت تظنني أعمى ؟!.. شف يا أبو زكي ، أنت تتهاون في الشغل ، هذه هي الحقيقة . تمسح الكندرة كيفما كان . من مدة وأنا ألاحظ هذا ، وكنت أقول : هذا فلسطيني مسكيـــن ، خله يتعيش واحك معه بالمعروف فقد ينفع الكلام معه ويصير يعتني بالشغل . ونبهتك مائة مرة ، لكن بدون فائدة ! للشفقة حـــدود يا أبو زكي ..

وتجمع العرق على جبين أبي زكي وسال حول أذنيه وعلى رقبته وقال وهو يمسح وجهه بكمه : « سيدي ، والله اشتغلت بها أكثر من ثلاثة أرباع الساعة » .

ـ لا فائدة من الكلام !.. أنا لا أريد أن أناقشك ، لكن هـــذه آخر مرة امسح فيها عندك ..

ومد يده الى جيبه وأخرج بعض النقود المعدنية : « خذ ، هذه ثلاثة فرنكات » .

ـ سيدي !..

وتصاعد غضب المدير : « شو مـــا اعجبتك ؟! فـــي الحقيقة أنت لا تستحق ثلاثة فرنكات ، أنت لا تستحق شيئا ، أنت تفشنا وتريـد أن تضحك على ذقوننا .. » وزفر بقوة ثم أضاف : « لو لم تكـن فلسطينيا كنت قلعتك من هذه الوزارة وما سمحت لك بالشغـــل فيها ، لكن ... » ونظر اليه طويلا ثم أضاف باستعاض : « على كـل حال ، خذ هذه المرة ... » ومد يده اليه وفيها النقود .

وبلع أبو زكي ريقه وقد أحس كأن خنجرا غرس في صـــدره ، ثم قال بهدوء : « لا ، لن آخذ شيئا ، لا أريد شيئا ... » وانحنى فوضع الحذاء على الارض ثم ترك الغرفة دون أن ينظر الى اليـــد الممدودة ...

لو لم تكن فلسطينيا ... كان كأنما خبط على رأسه ، ووقف في الزاوية منهكا مشتت الذهن ، وأصداء كلمات المدير ما تـــزال تتردد في سمعه . وألقى نظرة زائغة على الدهليز الظليل ، والمصباحين الباهتين ، وعدة الدهان التي تبعثرت على الارض من حوله ، وسيجارته المنطفئة التي بقيت في موضعها على حافة الصندوق . كان كل شيء يغرق في الصمت . وانحنى فلمّ العدة ووضعها داخل الصنـــدوق ثم رفعه وعلق حمالته الجلدية على كتفه ومضى يطلع هابطا الـدرج الرخامي ، وفي أعماقه يمتزج الغيظ بالاســـى : أنت انسان سيىء الحظ ، سيىء الحظ بلا حدود .. لماذا يجب أن تقع على رأسك كل هذه المصائب ، وأنت في حياتك ما آذيت أحدا ولا تعديت عـــلى أحد ؟!.. لقد كنت دائما حسن النية طيب القلب .. وراح يخبط على الدرصفة ذاهلا وفي فمه طعم المرارة : أنت في الحقيقة انســـان سيىء الحظ ، منحوس ، ولولا هذا ما خسرت بيتك وأرضـــك ، فمنذ ذلك اليوم ما عدت شفت يوما أبيض ، اي نعم ، منذ ذلـك اليوم الذي تركت فيه بيتك وأرضك ووجدت نفسك في البرية بـلا بيت ولا أرض ولا أمل و ... كانت البرية قاحلـــة باهتة وشمس حزيران تشتعل في أعالي السماء ، وكان الطفل يبكي علـــى ذراعـــك ، كان يريد ماء ولم يكن في البرية قطرة مـــاء ، وأم زكـــي كانت تمشي الى جانبك والدموع في عينيها ، كانت تبكي بصمت . وكنت تريـد أن تقول شيئا تواسي به أم زكي ، شيئا ما يواسيها ، ولكنك لـــم تفعل شيئا . كانت الكلمات لا معنى لها .. وعلى الطريق الترابية كانت ثمة جماعات صغيرة من أهالي القرى العربية تمضي متثاقـلة متعثرة في سيرها نحو الشرق .. لو لم يحدث هذا يا أبو زكـــي لكنت الآن تحيا بسلام وسعادة في تلك القرية ، كما يحيا كل البشر.. فقد كان لك ذلك البيت الابيض الجميل وحوله في الجنينة أشجار الكباد والكرز والياسمين ، كانت الحياة حلوة حلوة بين عبير أزهار الكباد وعطر الياسمين .. وكان لك حقل تزرع فيه القمح والخضار، وكرم يعطيك أشهى العناقيد ، وكانت لك قيمتك بين أهالي القرية و ... ولكنك فقدت هذا كله حينما أتى الصهاينة واحتلوا القريـة ، كانت المقاومة قد فشلت ، وألقيتم أنتم البنادق و ...

وتوقف أبو زكي عن السير وقد اعتراه الدوار ، كان كل شـيء يتموج أمام عينيه ويتداخل : الشارع والرصيف والمارة والواجهات... منذ ذلك اليوم والضربات تنزل على رأسك بلا شفقة ولا رحمـــة .. وأغمض عينيه الكليلتين وفتحهما مرات عديدة ، وكان الناس يمـرون به دون أن يهتموا بالنظر اليه ، وكانت أرتال من السيارات تتلاحـــم ثم تختفي في الشارع الطويل ، وعاد الى السير .. لو انك مت فـي ذلك اليوم كنت ارتحت من هذه الحياة التي لا تأكل خبزك فيها الا وهو مغمس بالاهانة والاحتقار .. على الاقل كنت ارتحت من شوفـــة نوري بك . قال ، هو يشفق عليك ! وغمغم بغيظ : ابن ال ... وهل أنا بحاجة لشفقته ؟! أنا لا أريد شفقته ولا شفقة أي انسان غيره ، فأنا لست شحاذا ، ولا أريد منـــه الا أن يعطي شغلـــي القيمة التـي يستحقها .. وانبثقت في مخيلته صـــورة ابي صطيف وهو يهتف بحماسة بالغة : « لعنة اللـــه علـــيّ اذا كانت لا تعجب الوزيـــر » .. وما كان أبو صطيف يمزح حين قال هذا ، كانت لهجته تدل عـــلى الصدق . ولماذا يمزح أبو صطيف ؟.. أبو صطيف رجل جدي ، ولو كانت فيها علة كان بيّنها وما استحى منك !.. المشكـــلة هي ان نوري بك لا يعرف من هو أبو زكي ، ولا الحالة التي كان فيها حين كان في بلاده .. ولا يعرف ان كل ما يريده أبو زكي من الدنيا هـو أن تكون لقمته شريفة وأن يحافظ على كرامته ، ولذلك فهو لا يعقـل أن يغش الناس .. لكن ، ماذا تعمل اذا كان حظك عاطلا ، واذا كان طبع المدير أعطل ؟! وزفر أبو زكي بمرارة وتوقف عن السير وقـد غامت عيناه من جديد . كان العرق يغمر وجهه وينزلق الـى عينيـه . واهتزت معالم الشارع واختلطت عبر نقاب ضبابي كثيف . وفكـر وهو يمسح العرق بكمه : عيناك ما عادتا تنفعان ، وستفقد نظـرك قريبا ، وحينئذ ستقعد بلا عمل .. وتأوه وهو يغمضهما ويفتحهمـــا حتى صفت رؤيته وراوده هاجس مفاجيء : ألا يجوز ان أبو صطيف كان يمزح ؟.. وانتفض أبو زكي .. أي نعم ، هذا جائز . قـــال لك المسحة ممتازة وقصده أن يورطك مع نوري بك حتى يتسلى بالضحك عليك .. هذا هو الواقع ، لكن الحق كله عليك أنت ، فما دمت تعرف ان بصرك ضعيف فقد كان يجب أن لا تتورط وتصـدق هـذا الاحدب الخبيث .. كان الواجب أن تأخذها الى محل فيه نـــور وتتأكد منها بنفسك ، دون أن تعتمد على كلام الاحدب .. ولكـــن ، لا فائدة ، فانت في عمرك لن تتعلم . الناس مخادعون يا أبو زكـــي ولا يمكنك أن تثق بهم . وأنت يجب ألا تثق بأحد بعد اليوم . حتى

ابنك زكي لا تثق به .. وهز الغضب ابا زكي وقد تذكر ابنه : ابن الـ ... تركك وراح ، وصار له سنتان ما سأل عنك ولا قال : لي أب .. وكيف يقول هذا وهو لا يهتم الا بالركض وراء بنات الحرام .. وهو يصرف مصاريه هنا وهناك دون أن يقول : أبي عاجز مسكين وما عاد يقدر على كسب لقمة العيش .. وغمغم أبو زكي وهو يشعر بالغيظ : بس لو كنت أعرف أين هو ؟.. في بيروت ، في القاهرة ، في ...؟! ثم عاود مسيرته المترنحة وهو يحس بالقهر.. لو كان زكي ابن حلال ما كان نسيك ولا نسي أمه المسكينة ، ولكان ريحك من كل هذه الهموم ...

وفتحت أم زكي الباب له ثم وقفت على العتبة وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة هنيئة ، فنظر اليها بغيظ : « خير ؟! خبرينا عن سبب هذا الضحك حتى نضحك معك ! » ورفع الحمالة عن كتفه ووضع الصندوق على الارض وهو يزفر : « لك الحق أن تضحكي .. ما على بالك هم ! » .

قالت أم زكي وفي صوتها لهجة البشارة : « زكي هنا .. » .

ونظر اليها بغيظ : « هذا وقت المزح ؟! » .

ـ قلت لك انه هنا .. تعال شف ..

وغضب أبو زكي وارتعش صوته : « ولماذا رجع ابن الـ... ؟ من قال له اني أريده ؟! » .

ونظرت العجوز اليه معاتبة : « اهدأ يا رجل .. هذا وقت الغضب ؟! قلت ، متى سمع سيفرح » .

ـ سنتين يتركنا ويروح يتلهى مع بنات الحرام ولا يقول : لي أب عاجز .. ماذا أعمل به ؟! لا ، هذا ليس ابني .. أنا بريء منه يوم الله ..

قالت أم زكي محذرة اياه بصوت منخفض : « اسكت بالله عليك .. الولد مجروح ونائم .. خله يسترح ! »

ـ مجروح !..

كان الخبر مباغتا له ، فسأل بصوت منخفض ينم عن القلق : « وكيف جرح ، وأين كان حتى جرح ؟! » ..

ـ « في اشدود يعقوب » .. اجابته أم زكي بخيلاء ، ثم أضافت بلهجة تنم عن خطورة ما تقوله : « كان مع الفدائيين وأصابه اليهود الصهاينة برصاصة في كتفه » ..

فقاطعها بقلق واضح : « في كتفه ؟ والجرح ، خطير ؟ »

ـ لا ، لا تخف ، الجرح بسيط ، وجاء ليرتاح هنا حتى يشفى »

ـ الحمد لله ..

همس أبو زكي بضراعة وهو يرفع عينيه الى السماء « طلع مثلما ربيته » ..

وتراءت لعينيه الحالمتين صورة القرية البيضاء الغافية بين أشجار الليمون والبرتقال ، والحقول المخضرة ، ورفرفة عصافير الدوري بين جفنات الدوالي . وعبرت به ذكرى أريج أزهار البلد وعطر الياسمين ومواويل الصبايا في الحقول .. « متى ستعود الى أرضك ؟! » هكذا فكر أبو زكي وهو ينظر الى أصابعه التي سودها الدهان ، وتخيل زكي ورفاقه وهم يقتحمون القرية حاملين البنادق ويطردون منها الغاصبين ..

ونظر الى العجوز وسألها بصوت منخفض : « وهل هو نائم ؟ » ..

ـ « اي نعم » .. وأضافت محذرة : « ادخل على مهلك ولا تزعجه ، أتركه ينم » .

ودخل فوضع الصندوق في الزاوية قرب الباب ، ووقف لحظة ينظر الى احدى الغرفتين الصغيرتين البائستين وقد ظهر عليه التردد ، وأخيرا اتجه الى الغرفة ماشيا على رؤوس أصابع قدميه ، وأدار مقبض الباب بحذر ثم مد رأسه من الفرجة .. كان « الولد » العملاق متمددا فوق فراش مد على الحصير في الزاوية وقد راح في سبات عميق .. كان فتيا رائعا رغم الشحوب الذي عرا وجهه الاسمر الجميل .. وراودت أبا زكي الرغبة في أن يدخل ويأخذ « الولد » ، ولده الوحيد ، بين ذراعيه ويضمه الى صدره .. « خله ينم » .. وأغلق الباب برفق وقد علت شفتيه ابتسامة تنم عن السعادة ...

* * *

لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة صباحا حينما فتح باب المصعد في اليوم التالي وبرز منه أبو زكي وصندوق الدهان على ظهره . ومضى يتطلع بحيوية نحو زاويته المألوفة حيث وضع الصندوق والكرسي الصغير ، وراح يتبختر هنا وهناك . كان الصمت يخيم على الغرف والدهليزين ، ولم يكن ثمة أحد سوى أبي صطيف الذي كان ، بلا ريب ، قابعا في ذلك الوكر الصغير « البوفيه » وقد انهمك في استعداداته الصباحية .وكانت أضواء الصباح الرقراقة تتسلل عبر الابواب المفتوحة فتنير الدهليز الطويل الذي قضي عليه أن يظل معتما طوال ساعات الدوام الرسمي .. وكان أبو زكي يقف بين حين وآخر ليلقي نظرة عبر أحد الابواب حيث لم يكن ثمة غير المكاتب الخالية ورائحة الغبار التي خلفتها الكناسة . وانتهى به التجوال أخيرا الى طرف الدهليز الثاني وهو يلقي على نفسه مجموعة من التعليمات : « ... ومن اللازم أن تحافظ على هدوئك .. لا تخف فأنت رجل مثلهم ، و ... ولا تحك بعجلة .. خل كلامك يكون طبيعيا و ... » وفتح باب المصعد وخرج منه أربعة موظفين يتقدمهم حسان رئيس الدائرة :

ـ يا صباح الخير يا أبو زكي .. هتف رئيس الدائرة الشاب بمودة وبشاشة وهو يتقدم نحو أبي زكي .. « يظهر أنك سبقتنا اليوم ، على غير العادة .. كيف حالك ؟ » .

ـ بخير يا حسان بك .. بس آلله سبحانه وتعالى يخليكم ويخلي لي زكي فأنا بألف خير ..

ووجد رئيس الدائرة من المناسب أن يسأله عن ابنه الغائب فقال : « وزكي ، ما هي أخباره ؟.. هل أخباره ما تزال مقطوعة أو ... ؟! » ..

وارتسمت على شفتي أبي زكي ابتسامة عريضة ، فها هي الفرصة قد سنحت لكي يحدثهم عن ابنه الفدائي الذي عاد اليه ، وقال : « لا ، الحمد لله ، البارحة رجع زكي » .

ـ البارحة ؟!

ـ آ ، نعم .. البارحة رجع وهو مجروح ..

ـ غريب ! وأين كان كل هذه المدة ؟ وكيف جرح ؟..

ـ لا أدري ما اذا كان من المناسب أن نتكلم في مثل هذه الامور ، فهذه من ...

وتوقف لحظة وقد لمح وجه نوري بك يطل من باب المصعد ومعه عدد من الموظفين والموظفات ، ثم التفت الى رئيس الدائرة وأضاف : « هذه من الامور السرية » ..

ـ من الامور السرية ؟!

ودارت همسات الاستغراب على الالسنة .

ووصل موكب المدير ، ونظر نوري بك الى ابي زكي ثم سأل رئيس الدائرة بانزعاج : « ما هذا التجمع ؟ ماذا حدث ؟ » .

ـ « لا شيء » قال رئيس الدائرة مطمئنا وأضاف : « أبو زكي يحكي لنا كيف رجع ابنه » .

ـ آه ، هم م م ...

ونظر الى أبي زكي بفضول ، فقد كان هو الآخر يعرف قصة اختفاء زكي .

وقال أبو زكي وهو يتأمل الجميع من حوله : « أنتم تعرفون ان كل ما يتعلق بالفدائيين يعتبر من الامور السرية .. وأنا نفسي ، أنا أبوه ، لا أعرف أين قضى كل هذه المدة ولا المكان الذي يقيم فيه ، كل ما قاله لي هو أنه فدائي ، وانه جرح منذ يومين لما هجموا على اشدود يعقوب » ..

ومن جديد دارت الهمسات ، وقال أحد الموظفين مؤيدا : « بالفعل ، أنا نفسي سمعت في الاخبار أن الفدائيين هاجموا اشدود يعقوب أول أمس » .

قال أبو زكي : « هؤلاء هم جماعة زكي » .. وأضاف بزهو وهو يتأمل الوجوه من حوله : « زكي هو الذي كان يقودهم في هذه العملية ، وأصابته رصاصة في كتفه ، ولكن جرحه بسيط وللـه الحمد » ..

ـ عظيم ، عظيم ..

وأحس أبو زكي بأنه قد انتصر على شيء ما ، شيء غير محدد تماما ، ربما كان ذلك الشيء هو الخوف ، أو الشعور بالهانة أو ... ونظر الى الوجوه وقال بتأثر بالغ : « وفقه الله ، كنت أظنه يتلهى في القاهرة أو في بيروت ... وكنت أظنه نسي أباه وأمه ، وأنه لا يهتم الا بشرب العرق والركض وراء الـ ... » وانتبه في اللحظة المناسبة الى وجود الموظفات ، فعدل عبارته وقال : « وراء أشياء لا ترضي الله ولا الرسول ... وإذا هو يرجع من اشدود يعقوب ، ويرجع مجروحا » .

قال رئيس الدائرة : « هذا يدعو للفخر » .

فنظر أبو زكي اليه ثم قال ببراءة : « زكي رفع رأسي » .. وسكت لحظة وهو يفكر . كان في أعماقه أشياء كثيرة يود أن يتحدث عنها ، ثم قال : « كنت في البداية ألومه لانه لم يعاونني ، فأنا رجل عاجز وفقير ، أكنني لن ألومه بعد اليوم ، فهو ليس لي وحدي ، فهناك كثيرون يتطلعون اليه والى رفاقه ، كل الفلسطينيين » .. وفكر أبو زكي لحظة ثم أضاف بحرارة ونشوة : « وأنا ، من جهتي ، يمكنني أن أعيش كيفما كان بعد اليوم ما دام قد وجد أهل في رجوعنا الى أرضنا وبيوتنا » ..

وهمهم المدير : « هـ م م م .. كفى يا أخوان ، كفى ، الى مكانكم .. » .

ثم التفت الى أبي صطيف الذي كان يقف على رؤوس أصابعه خلف الموظفين لكي يرى ويسمع : « وأنت يا أبو صطيف ، هات لي فنجان قهوة » ..

ومضى الموظفون الى مكاتبهم وفي طليعتهم راح أبو صطيف يهدج مسرعا الى « البوفيه » ، بينما اتجه أبو زكي الى زاويته . واستوقفه المدير : « يا أبو زكي » .

توقف أبو زكي واستدار اليه : « نعم » .

ـ نحن أصحاب يا أبو زكي ؟

ـ بدون شك يا بك ..

وأحس المدير بالرضا فقال : « مر عليّ بعد قليل فالكندرة تحتاج لشوية تلميع » .

قال ابو زكي معتذرا بلطف : « والله يا نوري بك أنا لا أتأخر . لكن الولد في الفراش ، وما كان من المناسب أن أتركه و ... »

ـ فهمت ، فهمت .. اذن نخليها حتى ترجع ..

ثم مضى الى غرفته وأغلق بابها وراءه .

واتجه أبو زكي الى الزاوية ، وهناك وقف وألقى نظرة على الدهليز الظليل ، وقد أحس بحبور عميق . وانحنى فرفع الصندوق وعلق حمالته الجلدية على كتفه ، ونبهته حركة فالتفت فاذا أبو صطيف قد نبت الى جانبه .

وقال أبو صطيف وهو ينظر الى الصندوق : « شو ..! الى أين ؟.. » .

ـ « الى البيت » .. قال أبو زكي موضحا .. « اليوم أنا غير قادر على الشغل .. أصلا ما كان يجب أن أحضر ، والمدير نفسه قال لي حتى امسح له الكندرة ، لكن اعتذرت » ..

ـ لكن أمس مسحت له اياها ! ما حلها المسح ..

وتذكر أبو صطيف ، فسأله : « وبالمناسبة ، ماذا قال لك أمس عن الكندرة ؟ » ..

ـ ما عجبته ..

ـ ما عجبته ؟!

ظهرت الدهشة على وجهه ، وفكر لحظة ثم سأله : « وكانت النظارة على عينيه ؟ » .

ـ لا ...

ـ لا بد أنه صاح في وجهك مرة ثانية .. مسكين مديرنا ، رجل طيب القلب ، ولكن متى رفع النظارة عن عينيه صار لا يميز شيئا من شيء .. وهذا سبب أكثر المشاكل التي تقع هنا .. بسيطة على كل حال ..

ـ آ ، طبعا .. الحياة ، يا أبو صطيف ، لا تخلو من المتاعب.. بخاطرك ..

ـ « لحظة يا أبو زكي ، انتظر لحظة » .. ومد يده الى جيب سترته ..

ـ « شو ؟ » .. توقف أبو زكي عن السير والتفت اليه .

وقال أبو صطيف وهو يناوله بعض الاوراق المالية : « شف يا أبو زكي ، نحن أخوان والحال واحد .. وأنت اليوم عندك ابنك ، ويجوز ما معك مصاري .. خذ ، هذه خمسون ليرة ، ما معي غيرها. خذها فأنت ستحتاج اليها ، وأنا أدبر حالي » ..

ونظر ابو زكي اليه بامتنان : « ممنون منك يا أبو صطيف .. معي حوالي ثلاثين ليرة ، وهي اتكفي » ..

فالح أبو صطيف بحمية : « بالله عليك خذها ، نحن اخوان يا أبو زكي » ..

قال أبو زكي وهو يود لو يعانق الآذن الطيب : « ما عندي شك يا أبو صطيف ، لكن خل مصاريك معك ، واذا احتجت اليها فسأطلبها منك » .

ورد أبو صطيف نقوده الى جيبه ، وقال بلهجة تنم عن الخيبة : « كما تريد يا أبو زكي ، لكن اذا احتجت فلا تنس ان أبو صطيف موجود » ..

ـ وكيف أنسى ؟!

قالها أبو زكي وعلى شفتيه ابتسامة تنم عن المودة والامتنان ، ثم راح يهبط الدرج الرخامي مشدود القامة مزهوا .

سامي عطفه

دراسات أدبية

من منشورات دار الآداب

- من أدبنا المعاصر
  للدكتور طه حسين
- قضايا جديدة في أدبنا الحديث
  للدكتور محمد مندور
- مشكلة الحب
  للدكتور زكريا ابراهيم
- تجديد رسالة الغفران
  لخليل هنداوي
- دراسات في الادب الجزائري
  لابو القاسم سعد الله
- بابا همنغواي
  لهوتشنر
- الادب المسؤول
  رئيف خوري